البلاد البعيدة

كانت خالتى أم الزنارى الله يرحمها تقول لنا إن قريتنا هى الدنيا لو خرجنا منها نعانى من الغربة، ولا يعرف مصيرنا إلا الله، وكبرنا فإذا الدنيا كما لا نعرفها. فهناك مركز، ثم عرفنا المحافظة والعاصمة، وفتح الله على بعض عباده فأبحر خارج الحدود وقال لنا إن الدنيا بلا حدود فيها بلاد وناس ثانية، وعشنا طويلا متأكدين أن شاطئ المحيط الأطلسى هو نهاية الكون، وأن أمريكا هى الكوكب الثانى الذى غنى له الشباب وتطورت الدنيا، وأصبحنا ننتقل إلى الكون كله ونحن فى بيوتنا نرى البرازيل وهاواى، وجزر بهاماز بالقنوات الفضائية، ونزور استراليا، وجزر فيجى على موقع بالإنترنت، فتفتح الشهية للمزيد من المعرفة وتدفعنا إلى الزيارة الشخصية.

إن جنوب الكرة الأرضية، جو مختلف وأرض من نوع غريب، وبشر ليسوا مثلنا وحياة لا نعرفها عاش الإنسان فيها آلاف السنين مع الأحياء المائية والبرية، لا مانع ولا فاصل، فالحوت صديقى، والتمساح قريبى، والثعبان رفيق الحياة. والكل فى قارب واحد يعيشون الحياة والموت، إنهم مصريون ويرى البعض أنهم من الهنود الحمر السكان الأصليين لأمريكا وكندا، ويقولون بل إنهم من صناعة هذا الجزء مائه فى المائة.

ولما اكتشف الإنجليز بعض شواطئ جنوب الكرة الأرضية، فى المحيط الهادى، زحفوا إليها وتبعتهم وفود وأجناس أخرى، زرعوا هناك العلم خفاقا وأشاعوا روح الحضارة التى ورثوها فى بلادهم البيضاء لكن سكان البلاد الأصليين، لم يتجاوبوا، ولم يتنازلوا عن هويتهم وأرضهم وتراثهم. فكان صراعا غير متكافئ، أدى بهم إلى الانحصار لتذهب

الأحلام إلى المتاحف، والتراث إلى حفلات التاريخ.

ويرى عالم الفيزياء الفلكي البريطاني ستيفن هوكنج أن مصيرا مظلما ينتظر أهل الأرض، فالزيادة السكانية مشكلة تزداد كل عام تعقيدا ودرجات الحرارة في ارتفاع دائم . لذلك فإن استعمار الفضاء. والكواكب الأخرى حل حتمي لينجو الناس من نهاية أليمة متوقعة.

وفكرة هوكنج، لو " شافها مخرج من السينما يعمل لها فيلم عليه القيمة" ، من أفلام الخيال العلمي، يصور فيه محطات الصواريخ الأرضية التي تستعد للانطلاق أرض جو، وطوابير الأهالي المقبلة على شباك التذاكر للسفر من أجل زيارة الأهل والأقارب والخلان، ومع ذلك فهو فيلم فاشل يخرج منه الجمهور ليعيد إلينا الصيحة الشهيرة ، سينما أونطه.. هاتو فلوسنا، وتبدأ رحلة الحجز على هدوم المنتج الغلبان.

إن شاطئ المحيط الهادئ، في جنوب الكرة الأرضية، أمل وبديل لفيلم هوكنج، فالخيرات كثيرة والأرض براح تتسع للملايين وهي أيضا مناطق سياحية من فئة الخمسة نجوم، شتاؤها بديع، وصيفها ربيع، والبيئة تمام التمام.

إنها البلاد البعيدة، وكم داعبت خيالنا ونحن صغار ونسجت لنا الحكايات أرضها وسماءها، ولا يكفي أن تراها في التليفزيون أو تزورها على الإنترنت، إنما الزيارة واجبة، فإذا طبقت المثل القائل ، راح يزور جاور، وماله من جاور السعيد يسعد فإذا عدت على مبدأ مين زار يخفف فأمانة أن تؤكد لأولاد خالتي أم الزناري- الله يرحمها- إن قريتنا ليست كل الدنيا.

محمد قابيل